

رواياته حبل بالاستشراف  
وطار.. الروائي المسكون بالمستقبل

His novels are gravid with foresight  
Ouettar...the novelist haunted by the future

د. عمر عشور\*

المدرسة العليا للأساتذة بوزريعة (الجزائر)

Achour.amar@ensb.dz

تاريخ القبول: 2024/05/13

تاريخ الاستلام: 2024/03/03

ملخص:

إنّ كاتباً يسارياً يمتلك ثقافةً دينيةً رفيعة، مارس السياسة والصحافة كما تعاطى النضال الثوري والنقابي، لا يمكن أن يكون مؤرخاً يرصد الأحداث وفقط (الماضي) ولا عالماً اجتماع يشخص الوقائع وفقط (الحاضر)، بل لا يمكن أن يكون إلا كاتباً ذا بصيرة وتنبؤات (المستقبل) يرى ما يراه المؤرخ والمحلل برؤية فنية وأساليب جمالية، ذلك هو الطاهر وطار العصامي الذي جاء إلى الأدب متعطشاً ومزوداً بتجارب شتى مكنته من استنطاق كنه الأحداث واستشراف مآلاتها.

كلمة مفتاحية: الاستشراف، التنبؤ التوقع، التجريب، وطار.

ABSTRACT:

A leftist writer who possesses a high religious culture, who practiced politics and journalism as well as a background of revolutionary struggle, cannot be a historian who monitors events only (the past) nor a sociologist who diagnoses facts only (the present). Rather, he can be a writer with insight and predictions (the future). Seeing what the historian and analyst sees but adding his artistic vision and aesthetic methods. This is Taher Ouettar, the self-taught Algerian novelist who came to literature thirsty and equipped with various experiences that enabled him to interrogate the essence of events and anticipate their consequences.

**Keywords:** foresight, prediction, expectation, experimentation, Ouettar.

\* المؤلف المرسل د. عمر عشور

## مقدمة:

منذ رواياته الأولى مطلع سبعينيات القرن العشرين إلى غاية رواياته الأخيرة مطلع القرن الواحد والعشرين والروائي الجزائري الطاهر وطار (1936-2010) يعالج قضايا المجتمع الجزائري والأمة العربية برؤية مستقبلية، وكثيرا ما تحققت تنبؤاته لتخلق استشرافا روائيا بات يمثل سمة بارزة في تجربته الروائية، فما هي مصادر شيخ الرواية الجزائرية؟ وماهي الآليات التي يتكئ عليها في استنطاق المستقبل؟ وما أثر ذلك فنيا وجماليًا على روايته؟ هذا ما تحاول هذه الدراسة الإجابة عليه خاصة فيما يتعلق بالاستشراف في الروايات الأخيرة في مساره الإبداعي باعتبارها تمثل اكتمال تجربة حياتية وإبداعية معا.

## 1. رؤية تقترب من الرؤيا

إنّ الاستشراف الذي تنطبع به جلّ روايات الطاهر وطار هو ضرب من التوقع أو التبصّر يجعل من أحداثها ذات مآلات مستقبلية، وإن كانت تعالج قضايا الماضي والحاضر اللذين يتقاطعان ويتفاعلان وفق منطق سببي متجه نحو المستقبل «إنه اجتهاد منظم، يرمي إلى صوغ مجموعة من التوقعات المشروطة التي تشمل المعالم الرئيسية لأوضاع مجتمع ما أو مجموعة من المجتمعات في فترة زمنية مقبلة»<sup>1</sup>، أي أن الكاتب يمكن أن يتوقع المستقبل انطلاقا من مؤشرات الحاضر والماضي، يتوقع ما يراه الآخرون مستحيلا عبر رؤية تتجاوز السائد «رؤيا جامحة في ثنایا المستقبل، رؤية فكرية وأدبية وإبداعية تقفز فوق شرافات متعددة (...)» قفزة فوق المسلمات السائدة قفزة تكشفها رؤيا الأديب الفنان وترصدها قبل وقوعها لتسكب ضوءا فوق جسد الأحداث والتحويلات»<sup>2</sup>. فالروائي الاستشرافي يشتغل فكره وفق رؤية تتجاوز المسلمات التي يلتزم بها المؤرخ وعالم الاجتماع، رؤية تقترب من الرؤيا.

يعد الاستشراف *Prévision* أو التنبؤ *Anticipation* أو التوقع *Prévoyance* من قضايا الرواية الحديثة، ولاشك أن رواية «1984» التي كتبها البريطاني جورج أورويل سنة 1948 وتنبأ فيها بالأزمة الاقتصادية التي ضربت العالم مطلع التسعينات من القرن الماضي، هي أشهر من نار على علم في هذا المجال، أما رواية «عيون الظلام» للكاتب الأمريكي دين كونتز التي صدرت سنة 1981 والتي تنبأت بفيروس يخرج من مدينة ووهان الصينية وينتشر في العالم خلفا لملايين الضحايا (كورونا اليوم)، فإن النقد حاليا يجد صعوبة في تصنيفها إن كانت تدخل في أدب الاستشراف أو أدب الجوسسة، بالنظر لدقة وخطورة المعلومات التي أوردتها، وهو ما يدعو إلى التفريق بين الاستشراف الذي يكتبه روائيون مرتبطون بدوائر التجسس كجواسيس أو استغلاهم من حيث لا يشعرون من طرف هذه المصالح لتمرير معلومات قصد التأثير على الخصوم، وبين الاستشراف كتشخيص لمعطيات الواقع وتحديد المآلات التي ستنتهي إليها مستقبلا.

من هنا نحن أمام ضربين من الاستشراف أحدهما مقيد زمنيا والآخر مفتوح زمنيا، في الأول تنص الرواية على زمن تحققه مثل رواية «1984» والثاني تتركه متروكا للزمن مثل رواية «عيون الظلام».

## 2. الرواية الجزائرية والاستشراف: حضور لافت

وفي الأدب الجزائري يعد محمد ذيب مؤسس الرواية الجزائرية الحديث المكتوبة بالفرنسية حيث سبق زمنيا مؤسسها بالعربية من أمثال عبد الحميد بن هدوقة والطاهر وطار من المشتغلين على الاستشراف، حيث وجد فيه وسيلة لنقد الاستعمار، فقد نشر ديب «الدار الكبيرة» سنة 1952، أي قبل ثورة الجزائر، وكانت تحمل تبشير بمثابة نبؤة منذرة بانفجار الوضع في وجه الاستبداد للانعتاق من الفقر الذي وصل حد الجوع، وهي بذلك تشبه الملحمة التي تحفل بالغيب والتنبؤ، وفعلا حين اندلعت الثورة سنة 1954 (الرواية صدرت سنة 1952).

بل أن لوحات البؤس والقهر التي برع ديب في تصويرها، راحت توحى منذ الصفحات الأولى لـ «الدار الكبيرة»- التي تمثل المدينة- أن الوضع لا يمكن أن يبقى على حاله، وبالكيفية نفسها رسم في «الحريق» -التي تمثل الريف لوحات- البؤس والقهر في حياة الفلاحين، فرغم الجوع والظلم، إلا أن هؤلاء الفلاحين يرفضون الخنوع وإحناء رؤوسهم سواء للمستعمر أو لعملائه، وكأنهم لا ينقصهم إلا من يأخذ بأيديهم نحو التغيير، أي أن ديب استطاع أن يرسم لوحاته بأسلوب تنبؤي، إذ استطاع كفنان ملتزم أن يقبض فنيا على السكنات والحركات الموحية بأن ظروف الثورة متوفرة، فكان أسلوب "الدار الكبير" يشع بشرارتها التي كانت تلمع مثل نبؤة بُشِّر بها شعب فصّدق بها، وبقي ينتظر حدوثها فقط.

كما اقتربت ثلاثية ديب من الطابع الملحمي الذي يحفل بالغيب "وقد تخرج الثلاثية (ديب) عن الطابع الواقعي لتقترب من الطابع الملحمي . شأن الرواية الانسيابية . وذلك في لجوئها إلى التنبؤ بالغيب ومخبيات الأقدار على لسان شخصيات رمزية جعلها الكاتب تتكلم وهي في حالة اللاوعي مثل منون وغيرها".<sup>3</sup>

ففي ثلاثية الجزائر هذه تنبأ ديب بالثورة سنة قبل حدوثها "مستهلا «الدار الكبيرة» بطرح رؤيته الاجتماعية والسياسية للجزائر من خلال ذكريات الطفولة، ثم يأخذ في تعميمها وتوضيحها مع تطور الشخصيات وتساعد الأحداث في رواية تقليدية تماما تعتمد على السرد والحكاية والزمن المتسلسل والراوي المطلع على كل شيء، كما تتبع أسلوب الوصف الخارجي والتفريفي في تشكيل بعض أجزاء اللوحة، ومع هذا ينبع جمالها من صدقها واحتجاجها ورؤيتها المستقبلية للثورة الجزائرية".<sup>4</sup>

ففي يوم الأحد الثاني من شهر مارس 1939، تقتحم الشرطة دار سبيطار بحثا عن المناضل حميد سراج، ويحدث صدام مع سكانها على مرأى من عيني الطفل عمر الذي يتطور وعيه، ليصبح أنموذجا لأبناء الفقراء المعذبين ويصبح حميد أنموذجا للنضال الثوري ضد الاستعمار، حيث يرفض سكان الدار التعاون مع الشرطة للكشف عن حميد سراج، وحين ينصرف رجال الشرطة يرتفع صوت المرأة "منون" - التي اختلط عقلها- في شكل لحن ييشّر بالثورة:

"إذا تحطم الليل

حملت دفني إلى الجبال الوعرة

ففضوت ثيابي على مرأى من الصباح

كتلك التي نهضت  
تمجد أولى قطرات المياه  
غريبة بلادي  
التي تنطلق فيها رياح كثيرة  
أشجار الزيتون تصطخب حولي  
وأنا أغني:  
أيتها الأرض المحروقة السوداء  
أيتها الأم الأخوية  
لن يبقى ابنك وحيدا  
مع الزمان الذي ينشب في القلب أظفاره  
اسمعي صوتي  
يتسلل بين الأشجار  
ويحمل على الثغاء الأبقار".<sup>5</sup>

ومع تقدم السرد تحمل «دار السبيطار» اسم «الدار الكبيرة»، لتصبح الجزائر كلها، إذ جاء في متن الرواية "تشبه دار السبيطار أن تكون بلدة".<sup>6</sup>

وفي الجزء الثاني من الثلاثية «الحريق» هاهو كومندار أحد ضحايا الحرب العالمية الأولى بفعل التجنيد الإجباري في الجيش الفرنسي بدأ يتخيل حصانا أبيض يثب نحو السماء، إنه حصان الحرية "عدوًا في الليل يا حصان الشعب، عدوا إلى الشمس وإلى القمر".<sup>7</sup>

أما على مستوى الرواية الجزائرية المعاصرة فإن روايات مثل «2084: حكاية العربي الأخير» للروائي واسيني الأعرج الصادرة سنة 2016، تفترض على القارئ أن ينتظر 68 سنة ليرى هل سيعرف العرب ذاك المال الذي رسمته لهم الرواية، كشعوب ضائعة بلا أرض وبلا هوية، يبحثون عن معاشهم وسط عالم جشع . والشأن نفسه مع الروائي الجزائري بوعلام صنصال الذي أصدر سنة 2015 بالفرنسية رواية «2084: نهاية العالم» التي تصور ما سيؤول إليه العالم على أيدي متشددين دينيين، والأمر نفسه ينطبق على ثلاثية «زمن الغربان» الصادرة سنة 2018 للروائي جيلالي خلاص التي تستقرئ مصير الشعب الجزائري بعد جملة أحداث ستعرفها الجزائر سنوات 2069 و 2072 أي بعد 50 سنة من صدور الرواية.

إن هذه الروايات الثلاث (واسيني، صنصنال، خلاص) المذكورة على سبيل المثال والتي تعالج قضايا مستقبلية لا يمكن تصنيفها اليوم ضمن أدب الاستشراف إلا بعد أن يحدث في الواقع ما ذهبت إليه من أحداث، حين تحين التواريخ المشار إليها.

أما الاستشراف غير المشروط زمنيا فيمكن أن نلاحظه مثلا في رواية «جنوب الملح» للجزائري ميلود يبرير التي صدرت سنة 2015 وفيها تنبؤ بأن أوروبا ستعرف انفصال دولتين وهو ما كاد يحدث مع إقليم كاتالونيا الذي أعلن سنة 2017 الاستقلال عن إسبانيا، لكن أوروبا تضامنت مع إسبانيا وأجهضت المحاولة، غير أن الانفصال بقي قائما على الأرض بطريقة غير معلنة. ثم تلا ذلك خروج بريطانيا من الاتحاد الأوروبي. كما أن هذه الرواية تنبأت أن بعض الولايات في أمريكا ستنفصل وهو ما كاد يحدث كذلك مع وصول ترامب إلى السلطة في جانفي 2017 حيث طالبت بعض الولايات بالاستقلال رفضا لسياسته تجاه المهاجرين. ولا يزال الأمر متروكا للزمن.

### 3. وطار: إطلالة على المستقبل

إن روايات الطاهر وطار (1936-2010) – الكاتب السياسي الذي كان مراقبا وطنيا للحزب في عهد الحزب الواحد – جلها تعد استشرافا للمستقبل، بداية من «اللاز»: 1974 و«الزلزال»: 1974 اللتين كانتا بمثابة نبوءة فيما يتعلق بمستقبل الدولة الوطنية، وانتهاء بثلاثية «الشمعة والدهاليز»: 1995 و«الولي الطاهر يعود إلى مقامه الزكي»: 1999 و«الولي الطاهر يرفع يديه بالدعاء»: 2005 التي تنبأت بكل خيبات الدولة الحديثة وانكسارات الأمة العربية. حيث تركزت هذه الروايات على تشخيص الحاضر بالارتكاز على معطيات الماضي بكيفية تقود إلى استنتاج المستقبل. ومن أغرب التنبؤات أن وطار الذي وظف صديقه الشاعر يوسف سبتي بطلا لروايته «الشمعة والدهاليز»، جعل له نهاية على أيدي الجماعات الإرهابية بطريقة بشعة، وأثناء كتابته الرواية (أنهى تحريرها في أوت 1994) عرض مسودتها الأولية على صديقه الشاعر فكان رده ابتسامة استغراب، تعبر عن عدم استيعابه كيف يكون هدفا للإرهاب وهو المثقف المحايد المعارض فكريا للنظام السياسي القائم آنذاك، لكن نهايته كانت بالفعل كما تنبأت بها الرواية، حيث اغتيل بتاريخ 28 ديسمبر 1993.

كما تنبأ الجزء الثاني من الثلاثية الموسوم بـ «الولي الطاهر يعود إلى مقامه الزكي» بحالة الإفلاس التي انتهت إليها الجماعات الدينية المسلحة بسبب برنامجها الذي يغرق في القتل من أجل القتل:

"يهوى الساطور. يتدفق الدم. يتطاير الرأس"<sup>8</sup>. عبارة تكررت تسع مرات وفي كل مرة يهوى شخص أو رضيع أو شاب أو عجوز، وحين لم يعد هناك مفر من الموت الذي فُرض على الجميع:

"فخص شاب لم يبلغ العشرين. وقف في الظلمة، رفع رأسه وراح ينادي بأعلى صوته:

- يا أولاد الرايس، يا أولاد أولاد علال، يا أولاد الجزائر، يا أولاد العرب والمسلمين. هبوا لقتل الخوف".<sup>9</sup>

يعد أسلوب التوقع، إحدى مظاهر الاستشراق، حين يتعلق بتطور حركة المجتمع، لأن الأديب باعتباره ابن مجتمعه يستطيع أن يسير أغواره، وبالتالي يمكن أن يتنبأ ببعض ما يحدث، وقد يكون الكاتب صاحب نظرة ذات بعد عالمي، كما في هذا التوجس من رواية «الشمعة والدهاليز» حيث الذي يقر "الإنسانية مقبلة على أحد أمرين. إما حرب مدمرة تعيدها إلى البداية، إن بقي منها باقية، وإما انفجار سكاني غملي، يصير فيه أكل البشر مثل أكل لحم أي كائن آخر"<sup>10</sup>، ومنذ سنة 1994- تاريخ هذا التنبؤ- حدثت حروب كثيرة، ذهب ضحيتها ملايين البشر، ولا يزال خطر الحرب قائما.

كما تنبأ الجزء الثالث «الولي الطاهر يرفع يديه بالدعاء» من هذه الثلاثية بالحالة التي تعيشها مصر اليوم، بل أن هذه الرواية تنبأت حتى بسجن الرئيس حسني مبارك<sup>11</sup>، وجاء في الرواية أن الجيش المصري سيعلم عدم تدخله في الأزمة، ولن يتدخل في تلك الأزمة التي أسقطت نظام الرئيس حسني مبارك" بلغنا، أن كل قادة الجيش، أعلنوا أنهم جيش نظامي غير ميسس، وبالتالي لا يعينهم الشأن الذي يجري بين العمي وغيرهم من السياسيين"<sup>12</sup>. وهو ما حدث فعلا سنة 2011 أي بعد 12 سنة من صدور الرواية، بل أن وطار أشار إلى انقسام المجتمع المصري لقسمين "قسم يدعي العلمانية، أسمى نفسه، الطاهويون، نسبة إلى العالم الجليل المرحوم طه حسين، صاحب حديث الأربعاء، والفتنة الكبرى، ورهين الحبسين، وما إلى ذلك. وقسم، أطلق على نفسه، نعت الكشكيون...".<sup>13</sup> بل أن الرواية ذهبت أبعد من ذلك، حين تنبأت بأن السلطة الجديدة في مصر ستلتزم بحماية أمن إسرائيل" وقال البيان الذي وصلنا عن طريق الخلوي، إن مصر لن تحيد عن نهج السلام، وعن مبادئ كامب ديفيد، واتفاقيات أوسلو، وخارطة الطريق، والخط الأخضر. واتفاقيات شرم الشيخ...".<sup>14</sup> وهو ما حدث في الواقع المصري، بعد حوالي عشر سنوات فيما بعد. حيث سقط نظام النظام السياسي ووصل الإخوان المسلمون إلى السلطة ثم تم الانقلاب عليهم.

ويكاد الفصل الموسوم بـ"انقلاب السحر" من هذه الرواية يكون كله توقعا، إذ تنبأ الكاتب عبر صفحاته الأربع بعدة أحداث تحققت لاحقا:

- الوطن العربي يفقد قيمته الاستراتيجية بسبب نفاد النفط "عدة برقيات، أكدها عبد الرحيم من واشنطن، تقول

الأولى إن الشرق الأوسط لم يعد يتوفر على النفط، وقد فقد بالتالي كل قيمة استيراجية له".<sup>15</sup>

- الاستيلاء على كل أموال العرب المودعة في أمريكا<sup>16</sup>.

- انسحاب الجيوش الغربية من الوطن العربي بما فيها العراق "استعادة كل الجيوش المتواجدة في المنطقة. بما فيها العراق، حالا وبدون تأخير، والتخلي عن الامتيازات الأمريكية، المترتبة سواء من حروب الخليج، أو عن العرب الباردة".<sup>17</sup> وهو ما حدث لاحقاً.

- وضع كل القوات الأمريكية في حالة تأهب قصوى.<sup>18</sup>
- الاعتراف بانتصار الإرهاب الدولي وهزيمة الديمقراطية الغربية في شكلها الحالي.<sup>19</sup>
- إعلام العالم بموت بن لادن<sup>20</sup>. وهو ما حدث أيضاً لاحقاً.
- أوروبا تقاطع التعامل بالدولار<sup>21</sup>، وهي حرب اقتصادية غير معلنة اليوم بين أوروبا والرئيس الأمريكي ترامب.
- الغرب سيعرف أزمة كالتى عرفتها البشرية في ثلاثينيات القرن العشرين<sup>22</sup>. وهي الأزمة الاقتصادية التي تمر بها أوروبا اليوم وأدت إلى انهيار اقتصاديات بعض دولها مثل اليونان.
- الصين وروسيا والدول الآسيوية يشكلون جبهة شرقية، بطريقة سرية غير معلنة<sup>23</sup>. ولا شك أن وقوف هذه الدول في مجلس الأمن ضد التدخل الغربي في سوريا يدخل ضمن هذه الرؤية.

وقد كان وطار في هذا الجزء الثالث «الولي الطاهر يرفع يديه بالدعاء» الذي أنهى كتابته في 21 أوت 2004، تنبأ بطريقة محاكمة الرئيس العراقي صدام حسين، مستشرفاً حتى رد صدام على القاضي أثناء المحاكمة، حيث جاء رد صدام في المحكمة (فيفري 2006) مطابقاً لرده في الرواية «رئيس الجمهورية العراقية من فضلك»<sup>24</sup>. كما تنبأ في هذه الرواية بنشوب خلاف بين الرئيس الفلسطيني ياسر عرفات ووزيره للداخلية محمد دحلان، ينتهي بموت الأخير، لكن عرفات هو الذي مات وهو يصيح "شهيدا. شهيدا" (وقد كان ذلك بتاريخ 11 نوفمبر 2004 أي بعد الانتهاء من كتابة الرواية)، بعد أن صورته الرواية، قبل سنتين من ذلك، يصيح على نفس الإيقاع "أبو عمار ما يفتأ يروح ويحيي زائراً كالأسد في القفص: رئيسا. رئيسا. رئيسا".<sup>25</sup>

إن رواية «الولي الطاهر يرفع يديه بالدعاء» تكاد كلها تكون بمثابة نبوءة حقيقية تصور حالة السواد والفوضى اللتين تلفان الوطن العربي وهو ما يُعرف اليوم بـ"الربيع العربي"، وخاصة ما لحق مصر وتونس وسوريا، في حين بقيت الحالة في الجزائر يلفها الغموض على حد تعبير عبد الرحيم فقراء الصحافي الذي يغطي الأحداث التي توردها الرواية:

"عبد الرحيم فقراء من الجزائر إليك الخط.

-شكراً عبد الرحيم

-تفضل

-الوضع هنا استقر بسرعة

(...) كل ما هنالك مجرد إشاعات مرتبة ومنظمة، وحثيثة أيضاً...".<sup>26</sup>

ويذهب وطار في هذه الرواية إلى أن اليهود سيخرجون من فلسطين، وهو استشراف تحقق جزء منه وبقي جزء منه ينتظر ماسيحدث:

"اليهود ينبغي أن يستعيدوا يهوديتهم فيتخلصوا من التأمرك الذي أصابهم، ومن التهتلر الذي لحق ضباطهم"<sup>27</sup>، وهو ما يحدث اليوم في فلسطين. ثم يضيف متوقعا ماسيحدث لليهود:

"على جميع اليهود أن يعودوا إلى مواقعهم، وأن يغسلوا أمخاخ الناس من الآثام التي ارتكبت في أرض الميعاد. أطلقوا سراح جميع المساجين، ولا تنسوا أن تكرموهم بتقيد التعويضات لهُم ولذويهم"<sup>28</sup>. ومن الراجح أنه سيتحقق مستقبلا، لأن أي استعمار مآله دوما الفشل.

كما يتوقع وطار مصير عملاء اليهود بعد خروج اليهود:

"قد يطلب منكم بعضهم الذهاب معكم، فافهموهم الحقيقة، وهي أنه لامقصد لكم"<sup>29</sup>. أي أن اليهود سيعودون إلى الشتات، ولا يجد عملاؤهم من الفلسطينيين أين المفر. بل أن وطار يتنبأ أيضا أن مشروع إسرائيل القائل بأن وطنهم يمتد من الفرات إلى النيل سيفشل حين يفقد الوطن العربي قيمته بنفاد النفط:

"-ياسيدي نجعله من الرات إلى النيل.

-وماذا نفعل بفراكتكم أو نيلكم، بعد أن لحقتكم اللعنة، وغار بترولكم؟"<sup>30</sup>.

أما ما يحدث اليوم في غزة فقد تنبأ به وطار سنة 2005 في "الولي الطاهر يرفع يديه بالدعاء":

"-نترك ذلك ونعود إلى كبير مراسلينا في الضفة والقطاع.

-عبد الرحيم فقراء، ما الجديد عندكم؟

-السواد يشمل المناطق العربية فقط، وكاميراتنا لاتعمل حتى في المناطق الأخرى. إنما الغريب في الأمر، هو أن المناطق المشمولة، تقع في حدود التقسيم الأول الذي لم يقتنع به العرب، الأمر الذي جعل الكنيست ورئيس الوزراء وأعضاء حكومته، ينتقلون على لمح البرق، على ما يبدو لكي لاتفتل منهم المبادرة، إلى تل أبيب، وقد تشكلت خلايا متابعة، شملت كل بيت وكل حي، كما شملت كل فصائل المجتمع الإسرائيلي، بما في ذلك السحرة الذين صرح كبيرهم، بأن عفاريت سيدنا سليمان هم الذين انطلقوا من أعماق الأرض، ليعلنوا عن غضب الرب من التأخير في إعادة بناء الهيكل.

ومع ذلك، فلا تعدم أصابع سيست الظاهرة، متجهة نحو إيران..."<sup>31</sup>.

إن وطار تنطبق عليه بالتمام والكمال مقولة ميخائيل نعيمة في كتابه "الغربال" من أن "الشاعر نبي وفيلسوف ومصور وموسيقي وكاهن"<sup>32</sup>، أي أن الشاعر/الأديب نبي لأنه يرى بعينه الروحية ما لا يراه بشر، وكاهن لأنه يخدم إله الحقيقة والجمال، يظهر له في أشكال وأحوال مختلفة، لكنه يعرفه أينما يراه فيقدم له التساييح، وبالتالي فإن الأنظمة السياسية والاجتماعية الحية عادة ما تجعل من كتابات مثل هؤلاء الأدباء جهازاً استشعار لرصد الهزات الاجتماعية والسياسية قبل حدوثها والتي يعجز عن التنبؤ بها حتى كبار علماء المستقبليات ورجال الاستخبارات. ويذكر أن أحد سفراء فرنسا في

مصر كتب في مذكراته أنه حين تقع أحداث في مصر، ويريد أن يعرف حركتها، يضع تقارير ملحقه العسكري ومساعديه جانبا، ويعتمد على ما يكتبه حولها نجيب محفوظ في رواياته.

هكذا كان الاستشراف إحدى وسائل التجريب التي ارتكز عليها الروائي الجزائري عامة ووطار خاصة في تحديد موضوعات الرواية الجزائرية وكذلك شكلها الفني، كون الرواية الاستشرافية تقوم على بنية زمنية خاصة وبناء الزمن في الرواية هو أساس الرؤية الفنية للروائي، فالنص الروائي لعبة زمنية تقوم على تصريف زمنين داخل بعضيهما، إلا أن اللعب يحتاج قواعد تضبط حركة القارئ بالفعل المطالب باحترام انتظام وتسلسل المراحل التي تضمن التشويق للمتلقي. والحكاية مثل اللعب، مجموعة أحداث متسلسلة وفق رباط زمني ورباط منطقي. مما يعني أن البناء الزمني للرواية هو من يعطيها شكلها وهويتها.

ويقوم الهيكل الزمني للنص الروائي على زمنيّتين: -أزمنة داخلية وأزمنة خارجية. وإذا كان دور الزمن الخارجي يعد ثانويا في بناء نسيج النص، فإن الزمن الداخلي الذي يشيد هيكل النص، يطرح بدوره ثنائية زمنية مضطربة، حيث أن للقصة زمنين، الأول هو زمن الحدث المخبر به (زمن الرواية)، والثاني هو زمن الإخبار (زمن الكتابة)، ويرجع هذا التذبذب إلى تعاصر الأحداث من جهة وبروز عدة شخصيات مرة واحدة، من جهة أخرى، واستحالة تقديمها دفعة واحدة، وهو ما يدفع الكاتب إلى استعمال عدة تقنيات، كالحذف والتقديم والتأخير، مما يعرض هذه الزمنية إلى نوع من الخلط الناتج عن هذه التصرفات التي أوجد لها النقد قواعد تُعرف بنظام الزمن.

كما أن معالجة مدة زمنية قصيرة، داخل مساحة نصية طويلة، يفرض إيقاعا مختلفا عن معالجة مدة طويلة من الزمن داخل مساحة نصية قصيرة، ويسمى هذا الإيقاع بالسرعة السردية، ومنه فإن العلاقة بين خط الزمن الذي يتحرك خطيا وخط السرد الذي يسير وفق حركة متعرجة، تؤدي إلى دمج الأوضاع الزمنية، وخلق مستويات الزمن من ماض، حاضر ومستقبل "الاستشراف كتقنية في الكتابة الروائية يكون استخدامها واضحا على مستوى الأزمنة التي يتعامل معها الكاتب في نصه السردية - وكيف يطوعها حسب الأحداث والشخصيات والتي لها تأثيرات تُساهم في جودة الرواية من حيث البناء ومن حيث مناقشة فكرة الوعي والمآلات لظروف وبيئة واحدة مشتركة بين الكاتب والقارئ".<sup>33</sup>

ورغم أن الزمن يعد آلية أساسية في بناء الاستشراف فإن لآلية التخيل في أدب الاستشراف دور حاسم "في نسيج وقائع متخيلة وافترض أحداث تتحقق لاحقا في توجه الكاتب في نصه الواقع في الزمن القريب أو البعيد وتقع في نفس الأزمنة والأمكنة التي تتناولها النصوص الأدبية أو أزمنة وأماكن أخرى".<sup>34</sup>

بل أن الأسلوب الاستشرافي يتطلب من الروائي الانفتاح على معارف كثيرة حتى من خارج مجال الأدب "ليس الكاتب عَرّافا ولا منجمًا يُقلب كرة بلورية يستبصر من خلالها المستقبل، لكنه يتميز عن غيره بقدرته على تمييز والتقاط التفاصيل

والوقائع وبقدرته على الخلق والابتكار والإيهام بالواقع. فيصف أمكنة، ويبيّن شخصياتٍ، ويُحيل إلى وقائع ويذكر أحداثاً تتكرّر أو تقع لاحقاً ليدهش قارئه".<sup>35</sup>

وهو ما يجعل هذه الروايات حبلى بالتناص، مما يمنح الرواية اقتحام عوالم لم تطأها أقلام الروائيين سابقاً، ليتحول الروائي إلى مستنبط لقضايا جديدة عبر استقراء الماضي والحاضر بما يقود إلى المستقبل "إلا أن تشكل أدب استشرافي في الجزائر له حضور محتشم الأسباب كثيرة من بينها أن الكاتب الجزائري لحد الساعة مازالت تستهويه فكرة الكتابة عن الماضي وعن مآسي هذا البلد، ما يزال الكاتب يخوض معارك وجودية كثيرة تخص ماضيه وحاضره. أما المستقبل فهو حالة وجودية وزمن مبهم يحتاج الكثير من التأويل والفهم - من طرف الكاتب والقارئ على حدٍ سواء".<sup>36</sup> وهذا يرجع ربما إلى أن الرواية في الوطن العربي والجزائر تعد جنساً أدبياً جديداً ولد في بيئة تقدّس الشعر وتعتبره فنّها الأول.

ومن هناك عادة ما يجعل التناص الرواية تنفتح على المستقبل مقدمة قراءات استباقية لوقائع وأحداث من الحاضر، مما يجعل الروائي يؤدي دور الطبيب المشخص لحالة مريضه متوقفاً المآلات التي يمكن أن ينتهي إليها، فالتناص استحضر نصوص سابقة أما الاستشراف فهو قراءة مستقبلية لأحداث الماضي والحاضر، وهكذا يلتقي التناص والاستشراف في الرواية مشغولين بآلية أتوماتيكية تعبر عن أصالة المبدع وعبقريته المتفردة، ليتحوّل الاستشراف إلى رؤية إبداعية تعبر عن رؤيا الروائي للحاضر المسكون بالماضي بما تجعل القارئ يستخلص رؤيته للمستقبل.

#### 4. خاتمة

إن الطاهر وطار مبدع مهوس بالمستقبل ومسكون به ففي "الشهداء يعودون هذا الأسبوع" تنبأ بعودة جماجم الشهداء من فرنسا، وهو ما حدث بالفعل أو رواية "عرس بغل" فهي تصوير لما آلت إليه الجزائر اليوم، أما في رواية "الحوات والقصر" فتجاوز الطاهر وطار النظرة الإيديولوجية السابقة، بانفتاحه على الرمزي والعجائبي باعتبارها محركاً دينامياً للتكهن بالمستقبل.

أما في ثلاثيته الأخيرة فقد تنبأ بالمأساة الجزائرية خلال تسعينيات القرن الماضي في "الشمعة والدهاليز"، كما تنبأ بمآل الجماعات الإرهابية في "الولي الطاهر يعود إلى مقامه الزكي"، وكانت "الولي الطاهر يرفع يديه بالدعاء نبوءة كبيرة بما يحدث حالياً في الوطن العربي بداية مما يعرف بالربيع العربي، وهو ما يدل على مدى ارتباط وطار بالواقع من مناحي شتى أهلته ليدرك مآلات الأحداث من منظور ثقافي وسياسي نابعين عن فكر يميني تطور لاحقاً ليصبح يسارياً، بعد أن صقلته الثورة التحريرية والنضال السياسي.

ومن هنا فإن الاستشراف تقنية الروائي التي تجعل القارئ مشاركاً في بناء أحداث الرواية، وبما أن القراء ممتدين في الزمن برؤيات مختلفة، فإن الروايات الاستشرافية هي روايات تقوم أحداثها على تعدد الدلالات وتغيرها حسب معطيات

المراحل، مما يجعل الروائي كما قال وطار يعد نبيا بشكل من الأشكال، وفيلسوفاً وساحراً بحسب ميخائيل نعيمة، كما سبق ذكره، أي أنه مبدع يستفيد من معارف وعلوم وفنون شتى، إضافة إلى تحكمه في تقنيات التخيل.

## 5. الهوامش:

1عواطف عبد الرحمن: الدراسات المستقبلية/ الإشكاليات والآفاق. مجلة عالم الفكر. المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب. الكويت. ع4. 1984. ص14

2عبد الرحمن العكيمي: الاستشراف في النص. مؤسسة الانتشار العربي. بيروت. ط1. 2010. ص18/17

3أحمد سيد محمد: الرواية الانسيابية وتأثيرها عند الروائيين العرب/محمد ديب- نجيب محفوظ. المؤسسة الوطنية للكتاب. الجزائر. 1989. ص109

4أحمد محمد عطية: ثلاثية الثورة الجزائرية. مجلة آفاق أدبية. فكرية شهرية عامة. بغداد. السنة2. العدد2. تشرين الأول 1976. ص122

5محمد ديب: ثلاثية محمد ديب. ترجمة: سامي الدروبي. دار الوحدة للطباعة والنشر والتوزيع. بيروت. 1985. ص32

6نفسه: ص47

7نفسه. ص135

8الطاهر وطار: الولي الطاهر يعود إلى مقامه الزكي. موفم للنشر والتوزيع. الجزائر. 2004. ص91/90

نفسه: ص91

10الطاهر وطار: الشمعة والدهاليز. موفم للنشر والتوزيع. الجزائر. 2004. ص137

11الطاهر وطار: الولي الطاهر يرفع يديه بالدعاء. موفم للنشر والتوزيع. الجزائر. 2005. ص65

12نفسه: ص66

13نفسه: ص39/38

14نفسه: ص39

15نفسه: ص107

16نفسه: ص107

17نفسه: ص107

18نفسه: ص107

19نفسه: ص107

20نفسه: ص108

21نفسه: ص108

22نفسه: ص110

23نفسه: ص110

24نفسه: ص113

25نفسه: ص76

26 نفسه: ص 68/69

27 نفسه: ص 105

28 نفسه: ص 105

29 نفسه: ص 105

30 نفسه: ص 105

31 نفسه: ص 105/32

32 ميخائيل نعيمة: الغربال. دار نوفل. بيروت. 1. ص 91

33 منى صريفق: عن الأدب والاستشراق (ندوة). النصر: يومية جزائرية. 2. جانفي 2022. ص 1634 عابد لزرق: عن الأدب والاستشراق (ندوة). النصر. ص 17

35 نفسه: ص 17

36 منى صريفق: عن الأدب والاستشراق: ص 16

## 6. المراجع:

1 أحمد سيد محمد: الرواية الانسيابية وتأثيرها عند الروائيين العرب/محمد ديب- نجيب محفوظ. المؤسسة الوطنية للكتاب. الجزائر. 1989

2 أحمد محمد عطية: ثلاثية الثورة الجزائرية. مجلة آفاق أدبية. فكرية شهرية عامة. بغداد. السنة 2. العدد 2. تشرين الأول 1976

3 الطاهر وطار: الشمعة والدهاليز. وفم للنشر والتوزيع. الجزائر. 2004

4 الطاهر وطار: الولي الطاهر يرفع يديه بالدعاء. موفم للنشر والتوزيع. الجزائر. 2005

5 الطاهر وطار: الولي الطاهر يعود إلى مقامه الزكي. موفم للنشر والتوزيع. الجزائر. 2004

6 عابد لزرق: عن الأدب والاستشراق (ندوة). النصر: يومية جزائرية. 2. جانفي 20227 عواطف عبد الرحمن: الدراسات المستقبلية/ الإشكاليات والآفاق. مجلة عالم الفكر. المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب. الكويت. ع 4. 1984

8 عبد الرحمن العكيمي: الاستشراق في النص. مؤسسة الانتشار العربي. بيروت. ط 1. 2010

9 محمد ديب: ثلاثية محمد ديب. ترجمة: سامي الدروبي. دار الوحدة للطباعة والنشر والتوزيع. بيروت. 1985

10 منى صريفق: عن الأدب والاستشراق (ندوة). النصر: يومية جزائرية. 2. جانفي 2022

11 ميخائيل نعيمة: الغربال. دار نوفل. بيروت. 1. 2009